النشاط الثقافي في العالم

فرنسا

هل انتهى دور الشعر في أوروبا ؟

(على هامش كتاب « الشعر والمجتمع » (1)

بقلم : محمد زفزاف

* * *

هنا وهناك ، يشاع بأن الشعر قد انتهى دوره . لم يعد الانسان في حاجة اليه كما هو في حاجة الى الخبز والى الانشغال بمسليات أخرى (اذا وضعنا في الاعتبار ان الشعر من احداها) واشيع أيضا بان الشعر لم ينته دوره الآن فقط وفي هذا العصر بالذات ، بل ان الانسان لن يعود في حاجة اليه في المستقبل. أن اهتماماته ستكون بعيدة عن الشعر تذوقه او نظمه .. وفي الواقع فاننا نلمح جميعا مظاهر هذه الازمة التي يتخبط فيها الشعر الاوروبي منه بالخصوص . ودليل الازمة هو ما انتهى اليه الشعر الآن في صوره الهلسنية سواء عند واحد مثل كيرواك فيامريكا أو عند واحد يعيش المخدرات والشعر في آن مثل هنري ميشو، او حتى عند واحد يختلف عنهما في سلوكهما الحياتي وهو جان كوكتو الذي نعرفه جميعا ـ باتزانه على الاقل ـ فهو يقول في قصيدة له شهيرة :

في ليل ، الرصيف ،الملائكة

هرتبيز والآهات والاحد وسيجست

بعد ان كانت أصبحت انثوية

لقد رأت ضوءا منتشرا ،الحمار ... الخ الخ .

أن أبياتا كهذه لتصور في الواقع المرحلة التي بلغها الشعر ،وهي مرحلة الاسفاف والمجانية في العبارات حيث لم تعد الكلمة تحمل معناها الاول ، وانفصلت عن مدلولها النفسي والاجتماعي انفصالا مؤسفا . ونحن اذا رجعنا الى الوراء نتتبع مراحل الشعر في تطوره عبر العصور لالفينا هبوطا وصعوداً عاشهما الشعر مرارا .. وماذا لو صادف عصرنا أزمة يعيشها الشعر ؟ فسنعرف فيما بعد أن الازمة كانت في عهد كزينوفون ، وان الازمة كانت في العصر الاسلامي وانها كانت في عهد انحطاط الدولة العباسية، ثم انها في النهاية كانت في القرن التاسع عشر حيث يعبر الشاعر الالماني هيلدر لين عن ذلك بقوله :

« في هذا العصر التعس ما الفائدة في الشعراء ؟ » . ان الشعر يعيش الآن ازمة ، ونحن نجد هنا او هناك بمعنى القصائد الضاربة في الازمة ان صح التعبير .. اني لا أزال اذكر ذلك الرسام البوهيمي الذي كان يعرض لوحاته على احد ارصفة شوارع العاصمة الرباط ومن جملة معروضاته هذه القصيدة :

احبك	je T,aime
احب ..	je T,aim ••
احـ ...	je T,ai •••
ا	je ••••
اللللعنة !..	Mmmmerde ;••

أنه يسمى هذا الكلام ـ ان صح أن نسميه كلاما ـ شعرا .ويضع تحت هذه الحروف كلمة « قصيدة » . نحن لن نتناول هذا النوع من الشعر ، والكاتب أيضا الذي نحن بصدد عرض كتابه لا يعرضه، ولذلك فلن نطيل في الحديث عنه . مهما يكن ، فازاء الازمة التي يعيشها الشعر في عصرنا الحالي توجه بعض المفكرين الى رصدها رصدا شاملا . ولكي نعرف جميع جذور الازمة والحلول التي وضعت لها فضلت أن أعرض للقارىء العربي كتابا مهما من تاليف جورج مونين يحمل عنوان « الشعر والمجتمع » ، صدر حديثا في سلسلة « صحف جامعية فرنسية » .

النقد والازمة

ان الشعر في الواقع يبدو بمظهرين أو ثلاثة آلى النقد على نفسه ـ وهو الذي كان من الواجب عليه أن يفعل ـ الا يتكلم عنها. احدى هذه القواعد أو الظاهر هي أن كل جيل للاسف لا يكون من نصيبه سوى شاعرين حقيين او ثلاثة ، ومعنى ذلك انه لا يكون لدينا في القرن الواحد سوى ما يقرب من عشرة شعراء .وذلك في أحسن الاحوال . اما ثاني هذه المظاهر فهي ان كل شاعر حق لا ينتج سوى قصائد قليلة جدا . غير أن تخلف النقد من هذه الناحية لا يمنعنا من الاعتراف بان النقاد لعبوا دورهم الاكبر في تقييم الشعر . ولكن هذا الدور ايضا قد وقع في مزالق ملموسة. خذ مثلا المجموعة المختارة من الشعر الفرنسي التي صدرت عام ١٩٢٨ والتي كانت بحق الصوت الفريد الذي اعلن للعالم ما توصل اليه الشعر بعد الحرب الكونية الاولى في فرنسا. خذ هذه المجموعة وستجد أنها تضم أسماء شعراء كبار أمثال أبو لينير وألوزيوس بتران ولوترياماان وماكس جاكوب . .الخ . ولكن الى جانب هذه الاسماء كنت تجد اسماء أخرى متطفلة على الشعر آنذاك . ولنذكر من بينهم الكاتب المعروف جان جيرودو فهو يقف الى جانب ابولينير ، ومارسيل بروست الذي كان يعزف على وتر فرلين .. يقف الى جانب لوتريامان ، وبول موران الى جانب جيراردو نيرفال ، وراد يقيالى جانب سوبيرفيل . .الخ .لقد توضحت هنا مأساة النقد والتمييز بين السيىء والجيد .

واذا كان النقد قد وعى دوره آنذاك بشكل او بآخر فانشتى الاعتبارات كانت تقف في وجهه . أنه من ناحية ملوم ومن ناحية اخرى غير ملوم . لقد كان النقد عام ١٩٢٥ يؤكد ان سان جون بيرس أكبر من ايمانويل سينوري (الذي يقول عنه أندري جيد بانه أصلب من الحديد .) وفي عام ١٩٣٠ كان يقول النقد بان ايلوار أكبر من كل من سالمون أندري ، وفيلب سوبول وبروتون نفسه .

اما في الوقت الراهن فانه يتعين على النقد لكي يقوم بعملية تقييمية مثل تلك التي قام بها من قبل ان يرصد الحدث الشعري الممتاز ، فيبوىء هذا الشعر مكانته الممتازة . وان الناقد الحق ، هو من يحاول ان يطرح اليوم هذا السؤال : لماذا لم يعد الشعر مقروءا ؟ وليحاول ما امكن ان يوضح الاسباب ويضع الحلول ، ومن ثم لينتقل من سؤال آخر اكثر الحاحا وهو : هل ياتي زمن ينتهي فيه دور الشعر ؟

ان المرء ليشعر حقا بان هناك ازمة فعلية . فحسب هذه الاصداء التي تتردد في كل مكان نفهم أن النقاد يندبون مصير النصر في العالم ، وحسب الاحصاءات المقارنة بين منشورات الشعر في القديم وبينها في الوقت الحاضر كذلك ، يجزم الكاتب بان الازمة في اوجها ... ان ذلك يتبادر الى الذهن بالمقارنة بين عدد النسخ المباعة من الديوان الشعري في فترة ما بين الحربين وبين عدد النسخ التي تباع في الوقت الراهن ... ان هناك فرقا على كل

1 ـ Georges Mounin . Poésie et société . (P. U. F.) ..

حال غير اننا سنصدم لا شك اذا علمنا بانه بيع ١١٠٠٠ نسخة في عام ١٨٠٩ من ChilZ Harold في خمسة عشر يوما وفي لندن وحدها ، بينما يعاد طبع ديوان « مستنقعات الزجاج » (١٩٢٩) لريفردي عام ١٩٤٢ للمرة الثانية ويعاد طبع ديوان « الاصدقاء المجهولون » لسوبير فييل (١٩٣٤) للمرة الثالثة عام ١٩٣٩ فقط وديوان « مختارات الشعر » لايلوار ١٩٤٦ للمرة العشرين عام١٩٥٦، ونجد ان ديوان « عالم الصمت » لكوستو قد ترجم الى ثلاث عشرة لغة . ويجب الا نغتر لهذه الارقام . فهناك وجه الازمة الحقيقية يبدو متخفيا . فالناشرون بفرنسا (ما عدا سيجربيير) لم يعودوا يهتمون بنشر الشعر . وكذلك الشأن في الولايات المتحدة الاميركية حيث تتوفر جميع الامكانيات . وكذلك الشأن في انجلترا ايضا ، ذلك البلد الشاعري . اما في ايطاليا فاننا نجد الازمة تحتدم بقوة كما تحتدم ذلك في اسبانيا وباقي الدول الاخرى . ففي ايطاليا اذا استثنينا شاعرين أو ثلاثة فان باقي الشعراء يطبعون دواوينهم على حسابهم الخاص .

وفي اميركا ليس هناك سوى دار واحدة لنشر شعر (النخبة) وهي دار NEW Directions في الوقت الذي تحتضر فيه مجلة Poetry العريقة وتصبح في خبر كان ..

ان هذه الارقام التي جاء بها الكاتب اعلاه تدفعنا من غير شك الى ان نطرح معه عدة اسئلة اهمها : من المسؤول عن ازمة الشعر ؟ الجمهور أم الشعراء أنفسهم ؟ وقبل الاجابة يؤكد المؤلف بان ازمة الشعر ليست وليدة عصرنا وحده ، بل كانت وستكون ، وهي دائما موجودة بشكل من الاشكال ...

قلنا ان ازمة الشعر لم يعرفها عصرنا فقط بل عرفتها قبله عصور ما قبل الميلاد ولنستمع الى كزينوفون يقول عام ٥٧٠ ق م مشتكيا من انخفاض قيمة الشعر امام الاهتمام بالالعابيات : « ان فننا احسن من قوة الرجال والخيل .. وانه لمن غير العدل أن نضع فننا دون القوة » .

وهناك صور اخرى لازمات اخرى عاشها الشعر وهي قريبة منا جدا ، فلماذا نذهب الى عهد كزينوفون ؟ كانت « لوميركور » المجلة الراقية عام ١٩٠٥ تملك ثلاثة آلاف قارىء فقط وكانت اذ ذاك في أوجها .(١) وكانت الآداب الخالصة في ذلك الوقت لا تنافسها سينما او تلفزيون او اذاعة . ولنسرد دليلا آخر أتى به المؤلف عن تدهور الشعر في نصف القرن التالي . فقد كان لومير ناشر شعر البرناسيين يردد مرارا بانه لا تباع في أحسن الاحوال سوى نسخة من الديوان الشعري في السنة (٢) وكان البعض يحاولون البحث عن سبب هذه الازمة فكانوا يتهمون المجلات بانها تقضي على الكتب .

واذن فهل الجمهور القارىء هو الذي يهمل الشعراء أم العكس؟ انه يبدو من الواضح أن الشعراء ـ كما يذهب المؤلف ـ هم الذين يتحملون قسطا اكبر من المسؤولية . فهناك فارق كبير بين الطريقة التي كان يتكلم بها الى الجمهور وعنه كل من كوتيي وموليير وفولتير وبين الطريقة التي يتوجه بها الى الجمهور كل من جوتييه ومالا رمي وبانفيل . هناك فارق كبير لان اولئك لم يكونوا يرغبون في ثروة أومال ، بل كانت علاقتهم مع الجمهور القارىء تحمل طابعا ثقافيا لا اقتصاديا ، وكان الجمهور هو دنياهم ، وكان الادب والشعر مجرد « علاقة اجتماعية »مثل المراسلة او لعب الاوراق او الثرثرة بينما نجد الشعراء الاخرين مثل جوتييه وبانفيل ومالارمي يرتفعون عن مستوى الجمهور حتى لكأنهم يطيرون . ولنستمع الى مالا رمي وهو يقول في مقال له بتاريخ ١٥ ايلول ١٨٦٢ تحت عنوان « الفن للجميع » يقول : « ان الفن معناه : سر لا تدركه الا فرديات قليلة جدا .. أيها الشعراء ، لقد كنتم دائما مزهوين بأنفسكم فلتزدادوا عجبا ولتصبحوا اكثر احتقارا للاخرين » .

وماذا نستطيع ان نقول بعد هذا كله ؟ أليست مشكلة الجمهور القارىء عويصة ؟ انه لا يجب علينا ان نحكم بان هناك ازمة جمهور قارىء قبل ان نكشف عن أسباب غياب هذا الجمهور عن مسرح الشعر ، لانه ليس من المعقول ان يكون القاتل هو الضحية في نفس الوقت .

الشعر والتعليم

يعزو المؤلف وقوع الشعر في ازمته الراهنة الى المدرسة فيذهب الى أن المدرسة هي الاخرى لعبت دورها في اخماد الحاسة الشعرية عند الجمهور (الذي مر بالمدرسة طبعا) ان الشعر يجب أن يهتم بتدريسه أناس متذوقون لانه ليس معلومات طريفة تحكى على التلاميذ في المدارس والثانويات ، او نصوصا تخضع لتقنينات واحكام دوجماتية لا مناص عنها تفرض على الطلبة في الكليات. وبما ان الطلبة والتلاميذ على الخصوص لا يرددون سوى ما تفرضه عليهم « عبقرية » مدرسهم الخاصة . فانهم لا يتقبلون غيرها على الاطلاق . ولذلك كان من الواجب الاحتياط لهذه الظاهرة الخطيرة، والاستفادة منها وتطعيم ادمغة الطلبة بروح متذوقة غير جافة، تطرب للقصيدة وتنفعل لها وتهتز لها بمجرد الدغدغة الاولى. ونحن للاسف عندما نقرأ ترجمات المع الشعراء (ليس هذا حكما صائبا مائة بالمائة) نجدهم قد عانوا البحث عن منبع الالهام الشعري في ارواحهم وحدهم لا بمعونة أحد .. وهنا يظهر قصور المدرسة . لماذا لم تستطع هذه المدرسة ان تجد بنفسها هذا المنبع فتنميه في هذا الشاب المتفتح على العالم والاشياء ؟ ان ذلك لا شك راجع الى مناهج التدريس والى المدرسين بخاصة . والمرء يستطيع ان يبتهج عندما يسمع بأن نقادا لامعين لهم طرقهم الخاصة الناجعة في فهم الشعر قد أولوا اهتمامهم لتدريس الادب .. خدمة منهم لهذا العملاق الاسطوري الكبير .

لقد كان تيوفيل جوتييه ومالارمي ينظران الى الشعر تلك النظرة الارستوقراطية وكان غوتييه بالخصوص يستنكر ديموقراطية الثقافة. فالشعر عنده يحس فقط اما تلك الشروح المدرسية الجامعية فهي عنده مبعث لتشويه الصدق الوجداني في القصيدة والشعر بالتشريح يموت . وهو لذلك لا يصلح لان يكون تاريخا . كما انه يجب التأكيد بانه على المدرسة وللمدرسة دورا كبيرا في تنمية الحاسة الشعرية . وانه لمن غير المعقول الا تكون المدرسة هي التي تقوم بهذا الدور ، لانها اذا لم تقم فمن يفعل اذن ؟

ويذهب المؤلف الى انه اذا كانت مملكة الشعر قد بدأت تنهار فليس معنى ذلك ان هذا الوضع الذي بلغته راجع بالدرجة الاولى الى المقررات المدرسية والجامعية على السواء . ففي عام ١٩٢٥ بفرنسا كان التلميذ البالغ من العمر ١٥ سنة بامكانه ان يقرأ بودلير ومالارمي ورامبو ولوتريامان وغيرهم ، أليس هذا جيدا على كل حال ؟

وبصدد علاقة الشعر بتاريخ الادب يحدد رونان « ان دراسة تاريخ الادب يجب ان تفرض نفسها في مدارسنا ، وذلك بالقراءة المباشرة للمؤلفات الشعرية ». وهذا ليس مقبولا ـ كما يذهب المؤلف ـ . الا اذا كان المدرسون بلا تجربة ولا سابق معرفة بالشعر . وهناك رأي آخر يذهب الى أن تاريخ الادب يؤطر ويوضح دراسة المؤلفات الشعرية ، لكنه مع ذلك لا يتدخل فيها .(١)

(١) les instructions officielles (1938)

(١) P, leautaud, journal litteraire . t i . Paris, Mercure de France , 1954 , PP 206 , 284

(٢) ـ المرجع السابق

ـ ثم بتوضيح اكثر « ان تاريخ الادب بأي وجه من الاوجه لن يكون موضوعا قائما بذاته يلقى كدرس وليس الى جانبه نصوص شعرية رائعة . « وبناء » على هذا فان الشروح لا يجب ان تكون قاتلة للشعر بل يجب ان تكون أداة متذوقة له ، تحسه وتنفعل له ، وتجعل الاخرين في حالة شعورية مماثلة . وعلى هذا « فينبغي اتخاذ الحيطة من جميع العموميات التي لا يحققها نص شعري قرىء او يقرأ » (1) لان هدف شرح النص هو « ان نفهم اكثر وان نحس اكثر ، وان نتذوق اكثر » والا نستعمل قطعة رائعة كوثيقة أو ان نجعلها درسا في الكلمات ومشتقاتها لانه من الفظيع حقا ان نطرح على الطفل اسئلة نحوية حول القطعة يعجز حتى المؤلف على الاجابة عنها بل وربما حتى ان يفهمها ومعنى ان نشرح أي قطعة هو « ان ننطلق منها ، ونتتبعها في نموها الضمني دون ان نجعل منها درسا لغويا جافا » (2) ثم انه ليست هناك طريقة واحدة للشرح . ليس هناك تصميم ولا خطاطة واحدة يتعين على الشارح اتباعها ، والا فشل هذا النص في تأدية دوره .. ليس هناك اي شيء من هذا .

وهكذا فالتلافي ازمة واقعية لا مناص منها يؤكد المؤلف انه يجب الالتفات الى التعليم كوسيلة ضرورية لفهم الشعر او يجب على الدولة ـ بالتالي ـ ان تفرض منهاجا تعليميا يكون فيه حظ الشعر حظا كبيرا ، خصوصا في الطور الثاني من الثانوي، وعلى المدرسين بعد ذلك ان يبذلوا قصارى جهودهم للكشف عن المواهب وشحذها .وللكشف عن ذلك الحدس الذواق لكل تلميذ. وليس هنا الحل فقط ـ نترصده من المعاهد والكليات ـ بل يجب ان نخرج من هذين قليلا ، لنقرر انه من الواجب ايضا رصد ظاهرة الازمة وحلها في المجتمع بجميع طبقاته العليا والسفلى ..

الشعر والناشرون

يؤكد المؤلف انه يجب الا نغفل مساهمة الناشرين في ازمة الشعر الراهنة بما في ذلك دور النشر او المجلات والصحف الاسبوعية التي تصدر في أوروبا . واذا كانت بعض الاحصاءات تؤكد بوضوح ان دورا للنشر تهتم بالشعر وتولي جهدا كبيرا لنشره وتعميقه بل وتهتم حتى ببعض الشعراء المغمورين فان ذلك لا يمنعنا القول بأنها تساهم في الازمة بشكل او بآخر الى جانب المعروف منهم . ثم ماذا تستطيع دور النشر ان تفعل وحدها لحل ازمة الشعر الذي لم يعد مقروءا ؟ انها تقف وحدها في جانب ، بينما تتخلى عنها في الجانب الآخر الصحف والمجلات المختصة . فعندما نحصي هذا العدد العديد من المجلات محاولين ان نبحث عن مدى اهتمامها بالشعر فسنجد أنها تتبرم منه ولو بشكل غير مباشر . فانت تجد القصيدة منشورة الى جانب اعلان عن مسرحية تقدم هذا المساء او ذاك او تجدها بعد تتمة لقصة او مقال وبأحرف وفنية غير لائقين .

صحيح ان هناك عددا كبيرا من المجلات والصحف التي تهتم بنشر الشعر او تحاول ان تهتم به ، ولكنها مع ذلك تبقى دائما مقصرة في تأدية الواجب الاقدس . ففي زعمها ان الناس لم يعودوا يقرأون الشعر. وهناك صحف اخرى تحاول جادة ان تهتم به لكن تخونها ظروفها ، فليس هناك من يمولها ، ولذلك فهي تضطر لحشر قصائد مهمة على ورق ردىء ومكتوبة بأحرف رديئة ايضا . ان اللائمة لا تعود عليها في هذه الحال ، فحسن النية يبرر فعلها هذا . ثم ان هناك اشخاصا آخرين يساهمون في تشكيل الازمة وربما لا يعارون ادنى اهتمام وهم الكتبيون. فالكتبي لا يهتم هو الآخر بعرض دواوينه بشكل مثير ومغر . بل انه ليفضل ان يبيع فلم مداد على ان يبيع ديوان شعر . لانه لا يهتم سوى بالربح . انه لا يستطيع ان يقنع زبناءه بأن هذا الديوان يجب ان يقرأ وبأن هذا الشاعر يجب ان يدرس . وهكذا فالكتبيون هم الآخرون يلعبون دورهم الكبير في تجسيد الازمة ، وقليل منهم من يهتم بالشعر ويحبه ويخلص له ويأسف لوضعه الذي يعيشه الآن .

الشعر على امواج الاثير

ثم ماذا عن الشعر تقدمه الاذاعة ؟ اننا اذا اثرنا هذه المسألة مع المؤلف يتبادر الى ذهننا ألم الشعراء الذين وجدوا ملجأهم اخيرا في تبليغ شعرهم الى الجمهور عن طريق الاذاعة . فالمستمع الفرنسي ينصت بين الفينة والاخرى الى كل من بيير ايمانويل وكلانسييه وبيير بيران ومالك حداد .. الخ . انه لمن المفرح حقا ان يجد الشعراء متنفسا لهم في الاذاعة حيث يستمع لهم جمهور كبير قد لا يسعفه الوقت لمطالعة شعرهم . ولكن مع الاسف ، نجد ان هذه الاذن ـ كما يسميها المؤلف ـ الاذن العالمية الكبرى لا تتم مهمتها بحق ، فبغض النظر عن الشعراء المحدثين ليس هناك اختيار للشعراء السابقين ، وليس هناك اختيار للقصائد التي يجب ان تذاع وفقا لاوقات معينة احتراما لذوق المستمع ومن ثم احتراما للشعر والشاعر معا . والى جانب ذلك فان القصيدة الشعرية تلقى داخل ضجة كبيرة فكأن الاذاعة في حاجة الى من يملأ بعض ثقوبها (الكتاب ص ٣٧) . فالمذيع يلقي القصيدة وهو لا يعيشها. فكأنه يلقي نشرة مهمة للاخبار او تعليقا سياسيا . وهذا عيب ليس مختصا بالمذيعين وحدهم ولكن حتى بالشعراء انفسهم . فعندما يستدعي شاعر لاجراء استجواب معه في الاذاعة او لقراءة بعض من شعره . تجده اثناء القراءة لا يحسن ذلك ، فربما خانه الصوت وربما اهتم للايقاع النغمي فقط دون ان ينفعل هو نفسه لمحتوى اللفظة والتلوين الوجداني فكأنه ليس هو كاتب هذه القصيدة . وبذلك يطفي الزيف على الحقيقة . فالقصيدة يجب ان يراعى فيها اثناء القراءة كل منعرجاتها العاطفية والا تلقى كحمل ثقيل ضاق به صاحبه .. وكل ذلك متوقف على اختيار المذيع اللائق لقراءة القصيدة . فذو الصوت العذب الحزين يوكل اليه قراءة القصائد الحزينة وذو الصوت الجهوري يوكل اليه قراءة القصائد الحماسية وهكذا ...

مسؤولية الشعراء والنقاد

ويثير المؤلف مشكلة اخرى لها أهميتها ، تلك مشكلة التجربة الشعرية والقالب الذي تقدم فيه الينا هذه التجربة وبالتالي منبع هذه التجربة وقيمتها . ان الشعراء بدورهم يتحملون مسؤولية كبيرة تجاه تجاربهم او بالاحرى ان لم يكونوا كذلك فيجب ان يتحملوها . وانه لمن المؤسف ان نجد غالبية شعرائنا المعاصرين يضربون عرض الحائط بمسؤولياتهم ومن ثم بالجمهور ... ان الشعر المعاصر يضرب في متاهة من الغموض والارستوقراطية والترفع والكبرياء . وهذا ما لا يليق بهذا الفن المقدس ، الذي يجب ان يكون متواضعا سهلا . يتذوقه الجمهور وينفعل له ويتعاطف معه . وان ذلك لن يتم بطبيعة الحال الا بتشذيب اللغة ، هذا القالب الرئيسي للتجربة . فاللغة تستطيع ان تكتسب المزيد من الوجدانات اذا كانت مفهومة ومعبرة ، وهذا ما تفتقده لغة الشعر المعاصر وما استطاعته لغة هوجو ولامارتين اللذين ابتدعا لغة جديدة حساسة . ان الشعر ما ان يظل مرتفعا عن الجمهور ـ لا يبحث عن وسيلة تقربه منه ـ فانه لا بد وان يختنق . ان ازمة الشعر المعاصر تتجلى في كونه لم يعد سوى صيحات وصور متتالية لا يراقبها احد ولا يوجهها احد ، فتصبح في النهاية كومة من الاحساسات والتأوهات غير المكتملة (1) .. هل يمكننا القول بأن اللغة الشعرية منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من لوكونت دوليل الى مالارميه ، ثم من كور بيير وسان بول رو حتى كلوديل وبروتون . هل يمكننا القول والتساؤل مع المؤلف بأنها استطاعت ان تقفز قفزة فعلية وان تتغير تغيرا فعليا كذلك ؟ ثم هل يمكننا القول بأن التقارب بين الشعراء والجمهور كان له اعتباره طيلة جيل كامل ؟ انه من الممكن ـ للاجابة ـ

1 ـ نفس المرجع السابق .
2 ـ المرجع السابق

1 ـ Robert Paulet Ruviorol , Avril 1956

ان يكون الامر غير ذلك . فطريقة الرسم عام ١٨٨٥ او ١٩١٠ التي كانت تصدم العالم آنذاك قد اصبح الاهتمام بها قويا في الوقت الحاضر ، وهكذا فان المرء سيحار في اصدار الحكم بسهولة .

غير انه عند محاولة تحديد معالم الازمة فيجب ألا يغرب عن البال أولئك الشعراء الصغار الذين يتعمدون الغموض . فهذا مالارميه لايكتفي بأن يقول : « الجلد حزين ، وأسفاه !! ولقد قرأت جميع الكتب » . بل انه يكتب مقالا بذيئا عام ١٨٦٢ عنوانه : « من البدع الفنية : الفن للجميع » . وهكذا فان محاولات كهذه كانت تهدف اولا واخيرا بافتعال الغموض ان تسلب الشعر تلك الحاجة الماسة وهي الجوهر الشعري .. فهذا فاليري ، وهذا كلوديل ، وهؤلاء شعراء المقاومة كلهم يعيشون تجارب غامضة ويعبرون عنها بغموض كذلك . واذا كانت موجة الغموض قد اجتاحت الشعر اخيرا واللغة الشعرية بصفة خاصة فانه من الطبيعي ان يسرع الجمهور الى البحث عن النصاعة الشعرية والوضوح وهو غير ملوم في ذلك .

ثم ينتقل المؤلف الى فئة اخرى يوجه الشعراء التهمة اليهم وبالخصوص فئة منهم معينة ، ذلك لانهم لا يهتمون بهم الاهتمام الكافي، ومن ثم فانهم يحطمون الوعود في البيضة كما يقال . فهم لا يعرفون سوى لغة التدمير ، ينقصهم التأني في القراءة واصدار الاحكام وينقصهم اذا شئتم الذكاء والحساسية الفاعلة والتسامح تجاه هذه النبتة الصغيرة التي يمثلها شاعر في طور النمو . وعلاوة على ذلك فان هؤلاء النقاد لا يفتأون يتسرعون لان وقتهم لا يسمح لهم بالقراءة المتأنية كما يعترفون بذلك . فالوقت لا يسعفهم . ليس هذا فقط ، بل ان بعضهم يفتقد الامكانيات الفنية والاخلاص في المهنة فتجد هذا يتحيز لذاك وذاك يتحيز لهذا . وهنا يتخرب النقد ويهوي الى الحضيض بينما يتبعه الشعر كذلك في التحدر الى نفس الهاوية ، اي الى ازمتها معا . وليست هذه مشكلة حديثة فقط ، بل هي قديمة ترجع الى عهد بوالو وما قبله ، وسانت ـ بوف وفرلين الذي كان يدعو بعض اصدقائه ليقوموا له « بقليل من الدعاية » ولا ننسى بهذا الصدد جيد وليوتو .. والازمة لا تتجلى في كون النقد يقسو على الشعر والشعراء بل انه بحكم الصداقة يعطف عليهم لكي يسقط القارىء في الفخ غير ان النتيجة تكون هي : سقوط الشعر في الازمة .. فيا للفظاعة !

ثم ان العديد من النقاد لا يفتأون يرددون مفاهيم عن الشعر رددها من قبلهم نقاد آخرون وكتاب سابقون معروفون .. انهم يفتعلون النزاهة والثقافة في الوقت الذي لا يفعلون فيه سوى ترديد كلمات ملوكة قيلت وقيلت عشرات المرات فكأن هذه القصيدة هي تلك التي قيلت منذ سنوات عديدة . انه نفس الحكم الذي يفترض ان تكون نفس القصيدة . ويا حبذا لو كان النقد يقف عند هذا الحد ، بل ان النقاد يصدرون الاحكام العشوائية فيعودون لمناقضتها دون التفات . ولنستمع لاحد النقاد يقول في تعريفه للشعر : « ان مهمة الشعر الخالصة هي ان يحدث بين اللغة القويمة وإسرار الكون تعايشا » . وفي مكان آخر يقول : « ان الشعر يقاوم أي تعريف مهما يكن مقاومة عنيفة » ... فأي تناقض اذن . ان الشعر : هذه الزهرة النضرة ، هذه الزهرة الضحية تبقى دائما ضحية وسط حملة المعاول الذين لا يصدرون احكامهم عن تجارب خاصة اثرت فيها ثقافات خاصة . انها العشوائية في النقد ، العشوائية التي تخنق ذلك المخلوق اللطيف الملمس ، البريء النظرات ، الخفيف القسمات الذي نطلق عليه الشعر .

الشعر والسياسة

يدعي البعض انه اذا كانت هناك ازمة فانما ترجع اولا واخيرا الى السياسة .. لقد رأينا بوضوح جذور هذه الازمة تتشعب لدى كل من الجمهور والتعليم والناشرين والشعراء انفسهم والنقاد .. والآن سنحاول مع المؤلف أن نوضح الى أي مدى تسهم السياسة في جعل الشعر ـ اذا كانت كذلك حقا ـ يعيش الازمة التي كتب بصددها هذا العرض .

ان أي انسان يهتم بالشعر لا بد وان يجد ان هذا الاخير رافق السياسة في كثير من مراحلها ، على مدى العصور .. هناك قصائد ألقيت في البرلمانات مثلا ، وهناك قصائد القيت امام ملك او رئيس موضحة سياسته ومشيدة بها .. الخ الخ .

ولا بد ان الشعر كان يخضع لجبريات تفرضها عليه الاوضاع التي تحيط به . خذ مثلا هذا الجبر الذي يسمح للشعر بأن يتناول اي موضوع ما عدا الذي يتصل بالله او الامير

ونجد اليوم ان علاقة الادباء بصفة خاصة بالسياسة وطيدة. ولهذا السبب فان بعضهم يأخذ على كل من مالرو وكامو وميرلو بونتي وموریاك وارثر ميللر وراسل توقيعهم للاحتجاجات كما يأخذون على كل من روبير كانتر ولوك استان اقحام انفسهما في انتخابات ج. يناير ١٩٥٦ بفرنسا ، وعلى جايتون بيكون حين كتب يقول : « انه لشيء طبيعي ان يكون اديب اليوم يساريا » . انها معركة حامية يشترك فيها الشعر والسياسة تكون النصرة فيها على حساب الشعر في الاخير . انك لن تكتفي بهؤلاء اذا عزمت احصاء العديد من الادباء السياسيين . فحتى الذي لا يهتم بالسياسة تجده يدعو اليها ولو ضمنيا . لنستمع الى روبير بولي وهو يقول : « انني اتعجب كيف لا آخذ قصائد عصماء في عصر الغضب (السياسي) هذا الذي نعيشه » (١) غير اننا اذا حاولنا تتبع هذه الموجة السياسية التي تجتاح الادب ، فاننا قد نستطيع وقد لا نستطيع الوصول الى منبعها . ولكن مهما يكن فاننا سنكتفي بالاستماع الى احد الكتاب حين يقول : « مهما احببنا السياسة ، ومهما استفدنا منها ، ومهما تعذبنا في ظلالها ، فانها أبدا تشدنا اليها وترغمنا على ان نتحدد من خلالها » (٢) . وفي الواقع لقد مرت قرون عديدة كان فيها الاهتمام بالافكار وبالعقل كبيرا . كانت الاهتمامات الايديولوجية تتفاعل ، وتحتد ، وتتشابك . بينما كان الاهتمام بالجماليات الصرفة في تدهور متزايد . وبهذا الصدد هل نستطيع القول بأن القرن العشرين سيكون لا محالة شبيها بالقرن الثامن عشر (بفرنسا) في الاهتمام بالافكار وتصارعها وبالسياسة وغليانها ؟ وهل نستطيع ان نقول ان صراع الافكار الفلسفية والسياسية والعلمية والاقتصادية والتقنية تلتهم الاخيار والاذكياء وان القيمة العقلية والجدلية تسلح حياتنا احسن من القيمة الغامضة واللاعقلية التي نسميها جمالية . اننا نستطيع بسهولة ان نلمح هذا التغيير الذي طرأ على محتويات الصحف والمجلات بصفة عامة في اوروبا . كانت اغلب الصحف تهتم بالشعر اهتماما كبيرا ، وتفرد صفحاتها لعدد من القصائد . غير ان الحال اليوم ليست هي الحال بالامس . فالمقالات التي تعالج المسائل الايديولوجية والسياسية والفلسفية والاقتصادية هي التي تهيمن على العديد من صفحات هذه المجلات . انه عصر العقل ، وما اشبهه بالقرن الثامن عشر ! انه عصر السياسة .. وما اشبهه به كذلك ! غير ان هناك فرقا واضحا بين القرن الثامن عشر والقرن العشرين في اوروبا .. فالقرن الثامن عشر كان صحراء غاص في رمالها الشعر . لم يكن له وجود مثلما هو الآن في القرن العشرين . كان النثر اذا ذاك سائدا من روسو حتى شاتو بريان . اما في القرن العشرين فالشعراء كثيرون ولكنهم غير مقروئين . هنا الفارق اذن . وهنا الازمة ايضا . ومن ثم فالسياسة لم تقتل الشعر ولكنها فقط شغلت القراء عن قراءته والاهتمام به .. وهكذا فاننا نصل الى نتيجة وهي ان العالم اليوم هو عالم السياسة ، والناس كلهم مشغولون بالسياسة ولا احد يستطيع أن يرغمهم على قراءة شيء لا يهتمون به ولا يعبر عنهم ولا يحسونه في دمهم ... انهم يحسون السياسة تسري في دمهم اكثر من الشعر ... ففي عصور سابقة ، ومنذ أشيل ، كانت السياسة تغذي الشعر ، وتحمله وتنشره في الناس غير ان الامر يختلف اليوم كل الاختلاف . فالقارىء اليساري فلا يفعل هو الآخر . ان كل فئة من هؤلاء يحترمون شعراءهم ويحتفون بهم ويغبطون

---

١ ـ المرجع السابق .

٢ ـ Michel Gourre, Monde noiveau Pévlier 1456 , P. 80

وجودهم غير انهم لا يغذونهم بالقوة والفعل . ان الشعر اليوم هو شعر الاقلية . وقد نعود باللائمة على السياسة ، لكننا مع ذلك لن نستطيع ان نقتنع مهما حاولنا ، فالسياسة قد تغذي الشعر وقد لا تفعل . وبذلك فسيبقى حكمنا ـ اذا اطلقناه بصفة وثوقية ـ غير ذي جدوى .

الشعر والتاريخ

فاذا فرغنا من كل هذا نلتفت مع المؤلف الى دعوى اخرى يقيمها الناس فيما يتعلق بأزمة الشعر ، على التاريخ . ولكي نثبت هذه الدعوى او ننفيها ، ولكي نثبت هذا الاتهام او ننفيه ، وجب علينا ان نتتبع المراحل الخطيرة التي اجتازها الشعر في التاريخ ودور هذا الشعر في التاريخ ، او بالاحرى في تكوين التاريخ . يقول روبير بولي : « ان العالم ، والمجتمع ، والتاريخ ، هذه كلها لا تحسب للشعر أي حساب اليوم ، وقد كان قبلها (ولا يزال الآن من طرف خفي) يلعب دورا كبيرا في هذا العالم والمجتمع ، والتاريخ » .

ولنبدأ بفحص هذه الحقيقة مع المؤلف على ضوء بعض المذاهب لتبيان خطلها اذا كان هناك خطل ، وصحتها اذا كانت صحيحة . ولنؤكد بهذا الصدد على قول معروف لماركس وهو ان « الانتاج الرأسمالي عدو لبعض فروع الانتاج الثقافي مثل الفن والشعر » (١) . ولكن هذه الفكرة تدعونا الى طرح العديد من الاسئلة : هل لان الرأسمالية كنظام لعلاقات الانتاج ، مختلفة مع انتاج الشعر ؟ ألهذا السبب وحده يشجب ماركس هذه القضية ؟ ام لانه يعتبر الرأسمالية أردأ مستهلك له ؟ ام انه ينظر اليها على انها طبقة حاكمة لها قوة تستغني عن الشعر ؟ او انها ما دامت كبنية اقتصادية سفلى فانها تقتل ، لا شعوريا ، شروط اي شعر ؟ انها في الواقع اسئلة سهلة ومحيرة في نفس الوقت ، اسئلة قد تبدو انها تمتد في طريق واحد ولكنها مع ذلك تتشعب في طرق مختلفة متعددة . ان كون الرأسمالية كابوسا يضغط على الشعر مسالة اثيرت من قبل ، اثارها الرومانسيون لقد كانوا يشتكون من وضعية بهذا الشكل .. ولكن هل معهم الحق ؟ هل البورجوازية حقا تضغط على الشعر ، تحقده ، تحطمه ، تؤرقه ؟ هل حقا الرأسمالية هي الاخرى تفعل فعلها في ازمة الشعر ؟ ان جورج مونين لا يرى ذلك في كتابه هذا الذي نحن بصدده .. فهو يؤكد انه ليس من المعقول ان نتهم البورجوازية بسوء استهلاكها للشعر ، ويقول بأن التاريخ يثبت لنا في عصور عديدة اهتمام هذه البورجوازية بالشعر ، وانه يتعين علينا الا نحكم على البورجوازية بانها توقع الشعر في ازمة ، بدليل انها بورجوازية فقط ، بورجوازية وكفى . فالبورجوازية لا تزال تحتفي بالشعر . يقول مونين .

وقد راينا كيف ان ماركس يتهم هذه البورجوازية . ولكي نوضح اكثر ، انه يقول بأن الرأسمالية تقتل الشعر ، فهي متضمنة لموته بغض النظر عن الرأسماليين انفسهم شانها في ذلك شان القيمة التي تحمل في طياتها عاصفة المطر والريح . فالبورجوازية لا محالة تقتل ذلك (الجوهر الشعري) بدون رحمة ولا هوادة . ويتساءل ماركس : هل بامكان الالياذة مثلا الصمود امام آلة الطباعة ؟ أليس ان الملاحم تختفي في ظروف كتلك التي يعيش فيها الشعر الآن ؟ انه باختصار يريد ان يؤكد على هذا الضغط الواعي واللاواعي الذي تحدثه الرأسمالية على الشعر . وزيادة في تصوير الازمة يقول فريفيل : (٢) « ان الشعراء الاغريق القدماء لصقلية والتيوكراتيين كانوا يغنون حياة الرعاة من معاصريهم ... لقد كانت تلك من غير شك الاحلام الشعرية الجميلة .. فهل يوجد اليوم شاعر شبيه يغني حياة العمال الاحرار لصقلية المعاصرة ؟ » لا شك ان السؤال يقتضي الاجابة الدقيقة ولنحاول ان نجيب بدقة نحن ايضا فنقول : ان جميع ما قيل حقا يعتبر قمينا بأن يكون مشتركا في تكوين سوسيولوجيا الادب .. هذا الموضوع الذي كشفت عنه النقاب لاول مرة ما دام دوستايل .. اما فيما يخص كون الملحمة الالياذية انقرضت عبر عصر ماركس او ما قبله ، فان القول ليس صحيحا الى حد ما ، فهناك ملاحم عديدة عند شعراء عديدين نذكر منهم رونسار مثلا وسكوديري ودو شابلان .. الخ الخ . وقد نذهب بعيدا فنقول ان الملحمة عوضتها الرواية الادبية كما يذهب المؤلف في كتابه هو الآخر . ويضيف ان الشعر لم يسقط في أزمة بعد ماركس ، بعد قرن من عصر ماركس ، ولم تتحقق قولته على الاطلاق من بعده ولم تلعب الرأسمالية أي دور من بعده في قتل الشعر . وفي الواقع فان ماركس استعمل في دراسة هذه المشكلة الفكر الهيجلي محاولا كما كان يقول ان يضعه تحت قدميه .

غير انه بالمقارنة نجد ان الفكرة بحد ذاتها في عقل هيجل اكثر رحابة وسعة وانشراحا ، فعند هيجل وماركس ان الفن كائن وموجود في التاريخ ، فهو قد ولد ، وكبر ويمكنه ان يموت بل هو في القرن التاسع عشر في طور الاحتضار ، فهو يموت ميتة طبيعية ولاسباب متعلقة بتاريخ الفكر نفسه . ويعتبر الفن مرحلة من مراحل المعرفة ، فهو مرحلة شباب المعرفة ، المرحلة التي تعطى فيها المعرفة الثقافية والمعرفة العاطفية ـ بتكافلهما ـ للفكر غذاءه الحي المحسوس . ويقول هيجل عن هذه المرحلة بانها في طور التجاوز .. انها متجاوزة ذلك لان تقدم « الثقافة العاكسة » (١) كما يسميها قد ادى الى التفرقة الكاملة للعمليات الثقافية والعقلية والمنطقية ازاء العواطف والتمثلات الحساسة المحسوسة للخيال . « ولهذا السبب ـ يقول هيجل ـ فان عصرنا بصفة عامة ليس قمينا بالفن » (٢) . ثم يضيف : « وفي هذه الظروف فان الفن او اتجاهه السامي يعتبر بالنسبة الينا شيئا من قبيل الماضي » . هكذا يقول هيجل . وبالنسبة له فالفن بعامة والشعر بخاصة ما هو الا ذلك الضرب من الماضي الذي نحن لسنا في حاجة اليه الآن .. واذن فالفن قد اصبح ضحية حركة الغزو التي يشنها الذكاء الخالص على العالم ، فهو ليس فقط موضوع المتعة ، بل هو موضوع الحكم ، موضوع العلم . ويقول هيجل بهذا الصدد « ان ما يثير فينا ، في داخلنا ، عملا ادبيا ما هو الحكم ... » ان تفوق الذكاء في النمو وتفوق الفهم والادراك ، وان عمق الحياة الفكرية والمفارقة المنهجولوجية العنيفة بين المعارف الباردة والحية ، كلها تحكم على الفن بالموت المحقق والاختفاء الجبري . ثم ان المتعة الجمالية تصبح هي الاخرى بدورها متعة ثقافية بل وحتى عملية ذكاء خالصة وحكما باردا وطريقا الى عمليات العقل الخالص . وكما ان العاطفة الجمالية ما هي الا لحظة من المعرفة ومن امتلاك الفرد للعالم فان الفن في مجمله لن يعدو ان يكون لحظة تاريخية في حالة من الوعي للانسانية بالعالم . ويقول هيجل : « اذا كان للفن في الطبيعة ، وفي ميادين الحياة المنتهية شيء يسمى « قبل » فان له كذلك شيئا يسمى « بعد » ... ومعنى ذلك ان هناك دائرة تتجاوزه في تمثل المطلق . لان الفن يحمل في داخله حدوده ، كما وانه قد اخلى المكان لاشكال عالية من الوعي ... » ويضيف هيجل مرة اخرى : « وعلى وجه العموم فان هناك لحظة ما في تطور اي شعب يصبح فيها الفن لا يجدي شيئا ، وتصبح الرغبة في التحصيل والمعرفة متعالية على الرغبة في الاحساس ، بل وتقتلها » .

يتضح لنا من اقوال هيجل ان الفن كان يعيش وسيعيش في ازمة . غير ان القرن والنصف الذي سيأتي بعد هيجل سيبين له كيف ان كل ما قاله غير سليم الى حد بعيد . فالثقافة والعقلانية لم تقضيا على الروح الجمالية بالرغم من كونهما تقدما تقدما ملموسا .. وبالمقابل فان الرغبة في المتعة الجمالية لم تبق حية فقط بل تقدمت ونمت سواء من

١ ـ J.traville Marx Engels et la litterature et l,art, Paris Edition Sociales , 1954. P. 186

٢ ـ المرجع السابق ص ١٨٤ ، ٢٤٨ .

١ ـ Esthetique, testes, choisis Presses universitaires de France , 1054

٢ ـ المرجع السابق .

الناحية الاستعدادية او العمقية . فالموسيقى قد ازدهرت وكذلك الرسم عام ١٨١٩ .. وهكذا فبالرغم من هيجل لم يستطع الفكر الخالص ان يسيطر سيطرة تامة . ولكن مع ذلك فان هذا الشخص قد استطاع ان يخزنا وخزا لطيفا وعنيفا في وقت واحد وان يقول لنا بأن هناك ازمة يغوص فيها الشعر حتى الركبتين . وفي الواقع فان الانسان ، ذلك الحيوان الجمالي ، هو في حاجة الى نصيبه العادي من الشعر الذي يعتبر فاتحة الغذاء الانساني عبر العصور ..

هل انتهى دور الشعر ؟

يذهب صاحب كتاب « الشعر والمجتمع » الى ان اول ما يجب ان نلتفت اليه هو كون الشعر نشأ اول ما نشأ كآلة لا كوسيلة لمتعة . وعنده ان تاريخ الشعر انما يكون بعد ذلك تاريخ تغيرات طبيعة واتجاه هذه الاداة التي هي الشعر . وباختصار فان المرء مهما حاول ان يرصد تاريخ الشعر فانه لن يستطيع الى ذلك سبيلا ، لانه ليس من الممكن ان نروي تاريخ الشعر كما يروي بيولوجيا تاريخ سلالة ما .. فنحن نسمي اليوم شعرا ـ داخل نطاق التاريخ الانساني الذي نعرفه ـ اشياء مختلفة كانت تعتبر بدورها جد مختلفة عما نسميه شعرا. ولنتخيل ايضا (حتى نتمكن من تحديد رؤانا مع المؤلف) انه بعد عصر الكهوف التي تحمل الينا الفنون القديمة نوعا من العلم الخيالي وانه بعد خمسة آلاف سنة لن يكون هناك ما نسميه اليوم بالصحف ، لان الاخبار مثلا ستنقل الينا بوسيلة نجهلها حتى الآن . لكن مهما يكن فان الصحف يجب أن توجد ما دمنا الآن بصدد الاقتراحات والتنبؤات أنهم سيشترون الصحف ، وكل ما يحملهم منها شكلها لا محتواها .. كل شيء الا المضمون . وسيصبح كل هذا التصنيف والتبويب في الصحف هو مثار العواطف الجمالية لدى الفرد وسيقوم مقام الشعر .. لنتخيل هذا فقط حتى نستطيع ان نثبت في مجال الافتراضات على ان الشعر باق، وان الجوهر الشعري سيبقى يحمله الانسان بين ضلوعه مهما كان ، وفي أي عصر كان ، سواء في عصر الكهوف ، او في القرن الثالث الميلادي او العشرين او السبعين . ونحن اذا حاولنا ـ يقول الكاتب ـ البحث عن جذور للتربية الشعرية منذ القديم فسنجد انها تجذرت بشيء من الدعاية ، ومن الممارسة ، والتكوين الموسيقي الجماعي في الكنائس . فقد لعب الغناء والرقص المقدسان دورا مهما في تثبيت الايقاع الشعري من الوجهتين المحسوسة واللامحسوسة في النفوس ، « فالغناء بصفة عامة ، وبشتى الاوجه ، طالما كان يساند الكلمات » ويمد لها يد المساعدة في التوغل والتجذر . « والابيات اللاتينية القديمة ، كانت تغني فقط ، ولهذا السبب وحده ، استطاعت أن تنقر طبلة آذان آبائنا الاقدميين . » (١) ان تنقر طبلة آذان المسيحيين في الكنائس والاديرة . كان ذلك قديما ... وما يزال الشعر الغربي ينتقل من مرحلة الى مرحلة ، فينفصل اولا عن الشعر اللاتيني ثم اذا به يخطو خطوات حثيثة حتى يلتقي بالمطبعة التي تدلله ، وتنشره في الناس ، وينتقل من مرحلة السماع ، ومن مرحلة الغناء الجماعي ، الى القراءات الفردية تحت اضواء القنديل ، وفي الخلوات تحت الاشجار وبين الازهار. ثم لا يتوقف عند هذا الحد ... لا يبقى كما كان وسيلة في ايدي المخلصين لله في صلواتهم ، بل يدخل الحياة العامة ، ويصبح هو الصحيفة ، وهو الرواية ، وهو القصة المطولة ... الخ . وما يزال الناس يجرون وراء الشعر حتى عثروا أخيرا على الفيتامين الشعري الذي يتضمنه . وها قد اصبح الشعر شعرا كما نفهم اليوم بغض النظر عن جميع الاعتبارات التعليمية والروائية والاخلاقية . ولعل هذه النظرة الخاطفة تؤكد لنا ان الشعر كان خاضعا طيلة حياته الى عوامل خارجية مؤثرة ، حذفت منه ، واضافت اليه ، وباختصار شذبته وهذبته.. غير ان هذا لا يمنعنا القول بأن هذه الاحداث والتغيرات التي طرأت على الشعر ، قد جعلت منه شيئا انفراديا يبتعد عن تلك الجماهير العديدة ، التي كانت رغم كونها تكتفي بالسماع والغناء تستهلك الشعر اكثر مما يستهلك الآن .. لقد كان الشعر قبلها مشاعا ، شعبيا ، شموليا ، كالصلاة والعبادة والتقوى . اما اليوم فان الامر يختلف ، والازمة كما يبدو تتوضح اكثر فأكثر .. هل نستطيع ان نقول ان تذوقنا الشعري سيصبح معادلا لتذوق الانسان القديم ؟ الا يشبه الانسان الذي يرى في صحيفة بلا مضمون نكهة شعرية ذلك الانسان القديم الذي كان يحس في النحت على الصخور نكهة شعرية ؟!

فها نحن اولاء نجد انفسنا مع ميتة فظيعة يتردى فيها الشعر . فكأن كل ما قيل منذ عهد بودلير حتى اراجون وهنري ميشو لم يكن شعرا . وكأن الالياذة الهوميرية لم تكن الا لغوا وكذبة بلقاء .

لننظر الى تعريف قديم للشعر جاء في الانسكلوبيديا البريطانية : « ان الشعر المطلق هو التعبير المحسوس والفني عن الروح الانسانية داخل لغة وجدانية منغمة » . ونحن اذا تمشينا بجمع احساساتنا وافكارنا مع هذا التعريف لوجدناه قيما . غير ان كل ما تغير في هذا التعريف هو ان هذه « اللغة الوجدانية المنغمة » قد بدلت بلغة وجدانية منغمة اخرى جديدة على الاقل امام أعيننا .

ان الكلام عن الشعر انما يعني شيئين متميزين وهما الشعر بمفهومه الضيق ثم الشعر بمفهومه الواسع . فاما المفهوم الضيق فهو ذلك التعريف الذي جاء في الانسكلوبيديا ، وهو الذي عند هوميروس وباندار ومالارمي .. الخ واما الشعر بمفهومه الواسع فهو شعر النثر ، في الرواية ، في المسرح ، في النحت ، في الرسم ، في الهندسة ، في الموسيقى ، في التصوير وحتى في الرياضة والعلم والفلسفة . لقد اتجهت بحق اهتمامات الناس الى مشاكل كثيرة وجدوا فيها التعويض التام عن الاهتمام بالشعر .. وهذا شيء اكيد ولا يشك فيه على الاطلاق فكثيرون هم هواة الجاز ، وكثيرون هم هواة السينما والتلفزيون .. الخ . وهنا تخطر لنا خاطرة مفاجئة بصدد الفنون . النحت مثلا ، ألم يعد هذا الاخير يعيش ازمة ؟ الا نستطيع القول بأن ازمته اعنف من الشعر ؟ فلماذا لا تحدث الضجة بسبب ذلك وتحدث بسبب الشعر ؟ لا شك ان الشعر باق في انفسنا وانه منا والينا ، واننا مهما كان الامر فلن نفارقه ولن يفارقنا .

نستطيع ان نثير نقطة اخرى بصدد هذا العصر ، عصرنا الذي يرهق الشعر ، هذه النقطة التي يثيرها المؤلف كون هذا العصر اصبح عصر « الصور » . فمن الكتاب المدرسي حتى السينما ، حتى التلفزيون نجد الصور . ان الصور اصبحت تنطق بدل الكلمات .

لا شك اننا مقدمون على عصر « البصر » . وان البصر سيصبح هو لغة العالم بأسره . لقد اصبحت الاخبار تنقل الينا بالصور في الصحف وفي الكتاب وعلى الشاشة البيضاء . ولكن مهما يكن فاننا لن نتخوف من هذا كله . فهناك بصيص من الامل يطل علينا من كوة لا تكاد نلتفت اليها تلك هي الاتحاد السوفياتي . ففي الاتحاد السوفياتي يقرأ الشعر كثيرا ويوزع اكبر عدد ممكن من نسخ الدواوين الشعرية . ان الناس يقرأون الشعر هناك كثيرا ، ويثبتون بذلك ان للشعر البقاء والخلود . ففي الاتحاد السوفياتي كان مايكوفسكي ينشد قصائده في ملأ من العمال والكادحين وينشد قصائده في الفلاحين بقصر ليفاديا ، والعمال في ميناء باكو ومؤخرا جدا ، وفي عام ١٩٥٨ فقط ، استطاعت قصائد لافتوشنكو ان تهز موسكو وهو الشاب الذي لم يكن يبلغ آنذاك سوى اربع وعشرين وسنة . وفي خمسة عشر يوما فقط نفدت اشعاره من المكتبات . وبهذا الصدد الا نستطيع ان نقول بأن الاشتراكية هي

١ ـ G. Late , Histoire Du Vers Français T. I P 159.

المنقذ الوحيد للشعر من أزمته . انه مما لا جدال فيه أن أي نظام يجمع فيه شتات الثقافة وينظم لا شك محافظ على الشعر . غير اننا لا يفوتنا القول بأن الاتحاد السوفياتي ، هذا البلد الشاسع الاطراف لا يـــزال يجتاز مرحلة الالقاء الشعري في الجماهير ، وهذا في حد ذاته طريف، اذ انه لا يبعده عن الحال فـي الهنـد ، فـلا يزال هناك خمسون الف مستمع يتجمهرون حول شاعر معروف ليصغوا اليه وكذلك الشأن فـي الشرق العربي وفي الجنوب ايطاليا على الخصوص .

ولكن مهما يكن فالشعر قد ازدهر في أيام الالقاء الجماعي ، فـي أيام التلقي الجماعي وبواسطة الانشاءات الكنسية . وبهـذا المعنى الا يصح لنا ان نعلق اكبر الامل علـــى الراديو والاسطوانات باعتبارهما وسيلتين تقومان مقام الانشادات الكنسية ، بل وحتى في عصرنا الحالي في الاتحاد السوفياتي والشرق الاقصى والاوسط ... انـــه يمكننا ان نعلق أكبر الآمال مع الكاتب على هذه الاسطوانات والراديو وقد لا يمكننا ذلك . فالتنبوء قد لا يؤدي الى حتمية في الواقع ولكن مهما يكن الامر فان الاذاعة والاسطوانات لن تفعل شيئا من أجل الذين لا يعرفون فيون وبودلير وايلوار . فالاذاعة لن تكون مدية الا بالنسبة لمن قرأ الشعـــر وتملاه اولا ، ومن ثم فهو يستعد لتذوقه حتى بالسماع العابر . ويعـود بنا هذا الى القول بدور المدارس في تكوين الحاسة الشعريـة لـدى القارىء المتلقي . ونعود لنؤكد مرة اخرى مع المؤلف ذلك الدور الضعيف الذي تلعبه هذه المدارس . فالثقافة الشعرية يجب ان تتوفر فلكـــي نقرأ هوميروس ، لكي نقرأ الالياذة والاوديسة لا بد وان تتوفر علـــى ثقافة قوية متينة تتفهم النص الشعري وتعيش خيالاته ، لكن ليس الـى الحد الذي نذهب فيه الى الاهتمام فقط بحيـــاة الشاعـــر وبظروف القصيدة التي احاطت بها أثناء عملية الخلق .. لان هذا لا يهم في رأي جورج مونين بقدر ما يهم الشعر كشعر . ان عصرنا اليوم يختلف كـــل الاختلاف عن العصور السابقة ، وبالتالي فالشعر اليوم هو غيره بالامس والجمهور اليوم هو غيره بالامس كذلك وبذلك فان العلاقة الموحدة التي كانت تجمع بين الشاعر والمتلقي فيما سبق قد انفصمت اليوم أو كادت.

وعنصر التجربة الشعرية ، هو في حد ذاته عنصر يجب الانتباه اليـه . فتجربتي الشعرية تختلف عن تجربة الآخرين وتجربة الآخر تختلف عـن تجربتي أنا وهكذا ... ان الامر يختلف عنه بالامس . فقد كنـــا نجـد قديما ولو بصفة غير واضحة نوعا من الوحدة الذوقية التي تربط بيـن الشاعر والمتلقي ، او نوعا من « العرف » . وهذا شيء لم يعد له وجود الآن . التجربة الشعرية اساس الجوهر الشعري ، فهي التي يجب ان تعتبر اولا واخيرا لا تلك الوحدة التي كانت تنشد في السابق . لكـن يبقى الآن اثارة سؤال خطير وهو : هل انتهى دور الشعر ؟ هل بامكـان الشعر ان ينتهي ؟ ان جورج مونين في كتابه « الشعر والمجتمع » . يرى ان الشعر لن يموت ما دام الانسان يتحدث باللغة ، وما دام الانسان غير أبكم .. فاللغة عنده متضمنة للشعر . والشعر يجري في اللغة كمـــا يجري الماء في النهر .. وهو في أسوأ الاحوال سيكون باللغة وفي اللغة حتى ولو لم نكن نعرف ذلك او على الاقل نتجاهله .

والشعر قيمة حقيقية وليس مجرد شبح قيمة . انه قيمة لان لـه قيمة ذاتية متضمنة ولن يستطيع أحد ان يقف دون سيلانه ، فهو يجري ويجري ومهما حاولنا ان نغفل عنه فلن نستطيع .. اذ كيف يغفل امرؤ عن ابيات انسانية تفعل فيه فعل السحر ، ان الانسان ابـــدا سيبقى يقول الشعر ، ما دام هو الحيوان العاطفي الباحث دوما عـن الاطمئنان الراكض وراء أفق « هجرة » . فرغم الهجران ورغم البعد ورغم النفور فان الانسان يبقى أبدا طيبا ، يبحث دوما عن « الصداقة » ..

المغـرب — **محمد ذفذاف**

دار الآداب تقدم

قصّة المقاومة الفيتنامية
كما يرويها أبطالها

يعتبر نضال الشعب الفيتنامي لتحريـر ارضه من اطول ما عرف التاريخ الحديث من مقاومة وصمود.
وهذا الكتاب الهام الذي نقدمه للقراء العرب ، في هذه الفترة التي تحتشد فيها الطاقات العربية كلها لمقاومة العدوان الصهيوني وتحرير الارض العربية في فلسطين ، يحمل مثالا وعبرة وفائدة عظيمة ، لا سيما وان مؤلفيه هم انفسهم من ابطال المقاومة الفيتنامية على راسهم الجنرال فو نيغوين جياب قائد المقاومة الفيتنامية سابقا ووزير الدفاع في فيتنام حاليا . والمؤلفون يروون باسلوب شيق طريف ذكريات اعمالهم السياسية والحربية في سايغون وهانوي واعوام الاسر والسجن والتعذيب ، والاحتلال الياباني وقيام حروب العصابات في حقول الارز والغابات الكثيفة ، حتى تعبئة الشعب كله في ربيع عام ١٩٤٥ وانشاء جمهورية فيتنام الديمقراطية في هانوي .
وخلال هذه القصة يبرز وجه مدهش عجيب : هو وجه ذلك المناضل الشاب ، والمثقـف الانساني ، والثائر الذي لا يلين : « العم هو » الذي سيصبح فيما بعد الرئيس هو شي منه ...
والفصل الاخير في الكتاب يتحدث عن المقاومة البطولية الرائعة التي ما يزال شعب الفيتنام يخوضها بقيادة جبهة التحرير الوطنية حتى ايامنا هذه ضد الاحتلال الاميركي وعملائه في فيتنام الجنوبية .

الثمن ٣٠٠ ق.ل — **صدر حديثا**